عُرِفّت الخلافة بأنها:"**خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا**". بمعنى أن الشخص الذي يتولى هذا المنصب يكون خليفة لرسول الله، ومسؤول عن الحفاظ على دين الناس ودنياهم. وثمة رأيين فيمن يمكنه أن يتولى هذا المنصب المذكور، فبحسب مبنى أهل السنة فإنه بإمكان أي شخص من قريش أن يكون خليفةً للنبي، ومؤتمنًا على دينهم ودنياهم، فالأمر عندهم متروك للمسلمين من أهل الحل والعقد، فهم يقولون بأن النبي لم يوصي بالخلافة لأحدٍ من بعده، مستندين في ذلك على سلسلة أكاذيب ألصقوها بالنبي تقطع بأنه أوصى بحب أهل البيت فقط، وأستدلوا بما قاله للخليفة الأول على النبي كذبًا وزورًا:" **إنّا أهل بيت إصطفانا الله وأكرمنا وأختار لنا الآخرة على الدنيا، وإن الله لم يكن ليجمع لنا أهل البيت النبوة والخلافة**"، وأيضًا قول عمر بن الخطاب:" **كرهت قريش أن تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا، فظنت قريش لنفسها واختارت، ووفقت فأصابت**". وجحفًا بالناس تدل على تقينهم من تقاطع طريقهم مع طريق أهل البيت؛ وبالتالي خوفهم على مصالحهم الخاصة، فضلاً عن الحقد والحسد الذي أكنوّه لأهل البيت، فأختلفوا معهم.

ولم تكن تلك الأقوال الموضوعة على لسان النبي هي الأساس الوحيد لبناء نظرية السنة في الخلافة، بل ثمة آيات قرآنية كريمة وظفت بشكل سياسي– قبلي، منها ما قالهما الخليفة الأول بعد شهادة النبي مباشرة، إذ ذكر قوله(تعالى):**{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}**. وأيضًا قوله (تعالى): **{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}**.

وكانت غاية إستشهاد أبي بكر بالآيتين الكريمتين أعلاه، هو بيان رأي أرستقراطي قرشي في أنه لا يحق لأحد من أهل بيت النبي أن يصل إلى الحكم "**تماشيًا مع الأكاذيب الروائية أعلاه**"؛لأن النبي بحسب مدعاهم ليس أبا أحد من رجالهم؛ حتى يورث الحكم" **وكأن الدولة عندهم أو المجتمع بمنزلة القبيلة وبأهميتها**". ولعل من الجيد الإلماح إلى أن الغرض من

الآية الأخيرة هو بيان البنوة المادية، أي بمعنى أن النبي ليس أبًا لأحد من رجال المسلمين، وإلاّ فللنبي الأبوة المعنوية المرتبطة بالتربية الإنسانية على نحو العموم. ومن الجدير بالقول أن الآية الكريمة كانت تعالج موضوع زواج النبي من السيدة زينب بنت جحش، زوجة زيد بن حارثة والحرج الذي وقع به النبي؛ لأن زيد هذا كان ربيبه.

وعلى أيّة حال وبسبب وصول الجيل الأول من الصحابة إلى السلطة بالقوة والغلبة، ولأنهم معصومين" **في نظر جمهورهم**" فقد إجاز فقهاؤهم إستعمال ذات الإسلوب من أجل السيطرة والحكم، بالذات مع قبول أهل الحل والعقد– **وهو مصطلح فضفاض لا يعني أنهم من الخير والسداد فربما أتفقت مصالحهم مع الساسة النفعيين**– ومبايعتهم للحاكم الغاصب، وهو على وفق رؤيتهم هذه فإن أي شخص تختاره قريش–**هذا خاص بإختيار هؤلاء له، والاّ هم يجوزون لغير القرشي الحكم بالقوة والقهر إذا ما وصل بثورة أو إنقلاب مثلاً**– يصبح خليفة، وله السمع والطاعة، وهم وإن إشترطوا في الخليفة أن يكون بمستوى معين من العلم، يؤهله ليكون في هذا المنصب، إلاّ أنهم "**عمليًا**" لم يراعوا شرط العلم بأحكام الشرع المقدس، ولا الجعل الألهي فيمن تولى السلطة، عادّين الجيل الأول من الصحابة أهل علم وفقه، مع ما موجود من ملاحظات على جهلهم الواضح.

وثمة سؤال يطرح ومفاده: كيف بنى الغاصبون نظريتهم في الخلافة من الناحية التاريخية، وكيف تحركوا للسيطرة على السلطة؟.

في الحقيقة أن مَنْ بنى فكرة الوصول إلى السلطة غصبًا هي الأرستقراطية القرشية التي غلبت على الحكم بعد شهادة النبي، وأقصوا الإمام علي عن منصبه الألهي. ومن أجل إضفاء السداد على سلوكهم، روجوا لعصمتهم في كم هائل من الروايات التاريخية منها عدّ الخلفاء الثلاثة الأوائل بأنهم مبشرين بالجنة، مما يعني عدم مؤاخذتهم على أي شيء فعلوه مهما كان، وبالتالي عدّ كل ما فعلوه أمرًا طبيعيًا، بل وتشريعيًا نابعًا من سدادهم المزعوم، ويأخذ به أهل السنة إلى الآن.

وعملت الأرستقراطية القرشية بسرعة مسابقة الزمن من أجل تحقيق حلمها في الوصول إلى مركز الحكم في المنتظم السياسي الإسلامي بعد النبي، إذ هم وجدوا بشكل واضح أن ثمة تقاطع بين مصالحهم الشخصية، وبين المشروع النبوي في بناء دولة إلهية، يتسنم الحكم فيها من بعد الإمام علي بن أبي طالب؛ لذا سارعوا وبكل قوة وعزم للسيطرة على مقاليد الحكم بعقدهم لإجتماع السقيفة، وإبعاد أي شخص كان يريد أن يمنعهم. ومن الواضح أن ثمة ثلاثة أطراف كانت لها الرغبة الواضحة في ترأس المنتظم السياسي الإسلامي، وهم:

1- الأرستقراطية القرشية التي عدّت نفسها سَبّاقة إلى الإسلام؛ وبالتالي لهم الحق في الحصول على الخلافة.

2- الإمام علي بن أبي طالب ومستند على عصمته وعهد النبي له، وولايته الألهية التي وردت في القرآن الكريم، والتي كثيرًا ما أكّد عليها الرسول الكريم في مكة والمدينة ولسنوات طويلة؛ في محاولة لإركاز الوصية والمكانة إجتماعيًا، ولسحب البساط من تحت الغاصبين المتربصين رحيل النبي عن الساحة الإسلامية لينفذوا مخططهم.

3- الأنصار بقيادة سعد بن عبادة الأنصاري، وهم تحفزوا للسلطة بعد أن رأوا تجمع الغاصبين في سقيفة بني ساعدة، يرومون الحصول على ما ليس لهم بحق، وبما أنهم يرؤن أنفسهم أفضل من الغاصبين؛ لذا وجدوا من الصواب ترشيح زعيم الأنصار المذكور أعلاه، وعدم السماح لمَنْ عدوّهم شراذم يتولون السلطة، ويصبح الأنصار تحت سيطرتهم.

لكن الذي حصل أن قريش وبعد سلسلة من الإتفاقات مع القبائل البدوية المحيطة بالمدينة، مثل: **أسلم وأشجع والديل وضمرة وليث وغفار ومزينة وجهينة**، تمكنت من الإستيلاء على السلطة غضبًا، وبإستخدام الأساليب الأكثر دموية، مقابل منح البدو الميرة والعليق. وثمة حجج تافهة لا تصمد أمام النقاش، يسوقها بعض المؤرخين حول سرعة قريش في عقد إجتماع السقيفة، وهذه الحجج هي:

1- ان المدينة المركز السياسي، وهي المكان الذي تتخذ في القرارات الحاسمة التي تخص المنتظم السياسي الإسلامي؛ لأنها تضم كبار الصحابة الذين رافقوا النبي، وعملوه معه طوال حياته، فهم حسب المدعى كان مستشاريه، وبالتالي هم المؤهلين لصنع القرار من بعده، على كل حال.

2- صعوبة المواصلات وقتذاك، فليس من الممكن إنتظار سكان الأقاليم البعيدة، من أجل المشاركة في إتخاذ مثل هكذا قرار حاسم، يجب البت به بسرعة، والاّ حصلت عاصفة سياسية كبيرة قد تودي بهم بعيدًا، ويمكن أن تطوي سجلهم إلى الأبد بعيدًا عن كرسي الحكم، الذي أنتظروه طويلاً.

3- إن مجتمع المدني خليط من الأنصار"**الأوس والخزرج**" والمهاجرين من أبناء قريش، وما إنضاف إليهم من أبناء القبائل العربية المحيطة بالمدينة، وترتب على ذلك أن أصبح للمهاجرين الثقل السياسي الأكبر في المدينة المنورة.

4- إن دخول قبيلة قريش الإسلام وأنتقالها إلى المدينة المنورة للسكن، جعل لهذه القبيلة الأرجحية في قيادة دفة الأمور فيها؛ لأن النبي وصحابته كانوا من ذات القبيلة، ولأبناء القبيلة الخبرة الكافية في إدارة السياسة والتجارة.

وفي الواقع أن هذا الكلام فيه تناقض صارخ مع رؤية الشيعة الإمامية التي تجد أن الخلافة منصب إلهي لا يتولاه إلاّ الإمام المجعول إليهًا" **أي الذي أراده الله لهذا المنصب**"، فهو الأجدر في تطبيق أحكام الله (ﷻ) وطريقه الأصوب للوصول إلى الغاية الحقيقة في بناء مجتمع على وفق رؤية شرعية إسلامية، قائمة على مراعاة نواميس الإرتقاء الطبيعية، هذه السبل التي لا يمكن أن يراعيها أو يفهما حقًا إلاّ المعصومين أو وكلائهم المطلعين على فقههم بشكل الثر على مرّ العصور.

فالشيعة الإمامية يرون وجوب أن يكون الخليفة إمامًا معصومًا من كبائر الذنوب وصغائرها؛ لأنه المسؤول عن تنفيذ الأحكام بعدالة تامة، وهذه العدالة تتطلب شخص له القدرة

الكاملة على الوقوف على مظان الحكم الشرعي ويعي جيدًا كيفية إنفاذه، وقادر على الإشراف عمليًا على بناء مجتمع مسلم بطريقة تحميه من الضلال والفتن، التي ممكن أن تحدث تصدع في البُنية الإجتماعية، وأيضًا من الأخطار الخارجية التي تحيط بالمسلمين، وربما أشدها خطرًا هو الدولتين الساسانية في إيران، والدولة البيزنطية القابعة في بلاد الشام القريبة من الجزيرة العربية، أو حتى صد المتآمرين من المنافقين المنتظرين وفاة النبي؛ لينقلبوا على الإسلام ويقضوا على تراث الإسلام والنبي معًا. بمعنى أن الجعل الألهي يريد شخصًا قادرًا على الحفاظ على بيضة الإسلام، وبناء مجتمع متماسك وقوي أمام أعداء الداخل والخارج على السواء.

وفي الحقيقة ثمة آيات قرآنية كريمة أقرّت ولاية أهل البيت(صلوات الله عليهم أجمعين) منها: قوله (تعالى):**{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}**. وقوله(جل وعلا): **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}**. وقوله أيضًا:**{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}**. وهذه الآيات الكريمة جاءت كما هو معلوم لتُتّمَ أمر الإسلام، بولاية الأئمة، ذلك أن الإمامة أصل شرعي في الإسلام، ودورها مُكمّل للنبوة، فالعمر المبارك للنبي لا يتسع لإحداث التغيير المطلوب في البُنية الإجتماعية العربية، ويجعلها مقبولة على وفق قوانين الإرتقاء الإنساني، التي يتحصل المجتمع وفقها لقوانينها على بناء إجتماعي عادل وصحيح، إذا ما حصل المعصوم على فسحة كافية من الزمن لتربية المجتمع؛ لأنه المُخوّل والمعيّن إلهيًا على وفق ما يعرف بالجعل الألهي، وذلك في قوله تعالى: **{إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}**.

وفي الحقيقة لم يكن النص القرآني هو الوحيد المؤسس لولاية أهل البيت، فثمة أحاديث كثيرة تشير لها، منها قول النبي:" **أيكم يؤازرُني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي**

وخليفتي فيكم". وقوله أيضًا: "**إنَّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم**"، وقوله:" **يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله و عترتي أهل بيتي**".

سأل جابر بن عبد الله، النبيصلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: "**هم خلفائي– يا جابر– وأئمّة المسلمين بعدي، أوّلهم علي بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمد، ثمّ موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثمّ محمد بن علي، ثمّ علي بن محمد، ثمّ الحسن بن علي، ثمّ سميّي وكنيّي، حجة الله في أرضه، وبقيّته في عباده، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها**".

وعلى وفق الآيات الشريفة يتضح أن أمر الإمامة ليس دنيونيًا، بل أمر إلهي قائم على التنصيص، أي أن الخليفة "**الإمام**" يُعيّن بإرادة ربانية بناءً على المصلحة العامة للمجتمع، وليس وفقًا لاختيارات الناس الخاضعة في الغالب لمصالح ماديّة أو عصبية قبلية، أو حتى عن جهل، وحسد وحقد، كما حصل في الحقيقة.

وخالص القول هنا هو أننا أمام رؤيتين مختلفتين، فأهل السنة: يروْن أن النبي لم يوصي لأحدٍ بالخلافة من بعده، ولا يعترفون بمنصب"**الخليفة**"، إلاّ لمن يملك السلطة بيده فعليًا، وإن كان بالقهر والغلبة، ويَعدّون هذا المنصب مقتصرًا على الإهتمام بالشؤون المادية للناس، والحفاظ على الكيان الظاهري للأمة الإسلامية. أما الشيعة الإمامية فيقرِوّن بوجوب أن يكون الخليفة إمامًا معصومًا؛ ليوفق في حل المشاكل والنوازل التي تَحّل بالمجتمع الإسلامي، ولا فصَل بحسب المذهب الشريف بين منصب الإمامة والخلافة من حيث الجعل الألهي؛ فالخليفة "**الإمام المعصوم**" ليس رجل السلطة الزمنية أو السياسية، بل هو المطبق الواقعي لأحكام للشرع الإسلامي المقدس، والمؤهل للحافظ على حدود الله وتعاليمه، ودروه محوري في الحفاظ على معالم الدين الإسلامي الحنيف.